القرآن.. مصدر الفكر والثقافة

يقول تعالى: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ) (الإسراء/ 9)، القرآن الكريم مصدر الفكر والثقافة والعقيدة، ومنهاج السلوك والتربية والأخلاق، ومستودع التشريع والأحكام والمعرفة، ومقياس الخطأ والصواب، ومرجع الحيرة والخلاف.. وهو مصدر عزّة هذه الأُمّة وأساس نهضتها، فمنذ أشرقت أنوار الوحي في ربوع مكّة المكرّمة إنطلق التاريخ الإنساني مرحلة جديدة من الوعي والإيمان والثقافة والحضارة..

ولعظمة هذا القرآن كان النظر فيه عبادة، وتلاوته عبادة، وتدبّره علم ومعرفة، والعمل به هداية ونجاة..

ومن نِعَم الله سبحانه على البشريّة جمعاء أنّ هذا القرآن محفوظ من التحريف والتلاعب في نصّه النيّر المبارك.. والمشكلة الكُبرى في الفكر الإنساني هو الإختلاف في فهم القرآن وتفسيره، والتلاعب بدلالاته ومعانيه، وتأويله حسب الأهواء والأفكار القاصرة المنحرفة..

وقد بذل أئمّة أهل البيت (ع) والعلماء جهوداً عظيمةً لحفظ القرآن من التحريف والتزييف بعد رسول الله (ص)، فقد ألّف العلماء الآلاف من الكتب والدراسات المعنيّة بالقرآن وعلومه ومعارفه وما يرتبط به من لغة وتفسير وقراءة وتاريخ وتشريع... إلخ.

إنّما يطمح إليه المخلصون من أتباع القرآن هو أن تعود الأُمّة إلى كتاب الله المجيد، منهجاً ودستوراً للحياة، ومصدراً للوعي والفكر والثقافة، ومقياساً للخطأ والصواب، ومرجعاً لحل الخلاف وأساساً للوحدة ونبذ الفرقة.

- ماذا تعني ثقافة القرآن:

كثيراً، ما تتردّد كلمة ثقافة ومثقّف، والكثير مَن يستعملها لا يقصد بالثقافة إلا مجموع المعارف التي يحصل عليها الإنسان.

والمثقف حسب هذا الفهم هو مَن حوى قدراً من هذه المعارف أو تلك.. أو هو حامل الشهادة الدراسية، لا سيما في مستوياتها الجامعيّة.. ذلك ما يفهم معظم الناس من كلمة ثقافة ومثقّف..

ونحن نريد في هذا البحث الموجز، أن نُعرّف بمفهوم الثقافة والمثقّف من خلال الرؤية القرآنيّة..

تُعرّف معاجم اللّغة بكلمة (ثقف): فتضع أمامنا المعاني الآتية:

جاء في معجز مفردات الراغب الأصفهاني: "الثَّقْفُ: الحِذقُ في إدراك الشيء وفعله، ومنه استُعِيرَ المُثاقَفَة، ويُقال ثَقِفْتُ كذا إذا أدرَكتَه ببصَرِك لحِذق في النظر، ثمّ يُتجوّز به فيُستعمل في الإدراك وإن لم تكن معه ثقافة".

وجاء في المعجم الوسيط: "ثقّف الشيء أقام المعوج منه وسوّاه، وثقّف الإنسان أدّبه وهذّبه وعلّمه".

وإذا عرفنا أنّ مفهوم الثقافة في معاجم اللّغة يعني في بعض دلالاته: الذكاء والدّقة في استقبال المعرفة والحذق والمهارة في العلم والمعرفة والصناعة، وتقويم المِعْوَج وتسويته، وإزالة الزوائد منه.. فمن هذا المنطلق يجب أن نفهم مصطلح ثقافة ومثقّف ونستعمله، فلا نُسمّي المتعلّم مثقّفاً ما لم يسلك السلوك القويم، ويُنقّي سلوكه وشخصيّته من الانحرافات، والهبوط الأخلاقي..

ومن هذا المنطق أيضاً، فإنّ ثقافة القرآن تعني تقويم السلوك الإنساني وتهذيبه وتنظيم البنية الذاتية للإنسان على أساس القِيَم والمبادئ القرآنية، ليكون شخصية قرآنية في فكره وسلوكه وطريقة تفكيره.. وهو الإستقامة:

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) (الفاتحة/ 6).

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (هود/ 112).

ولذلك أيضاً ينهى عن الانحراف والشّذوذ، ويستنكر هذا السلوك المِعْوَج:

(فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ) (الأعراف/ 44-45).

إنّ القرآن يحمل إلى البشريّة مشروعاً ثقافيّاً، وحضاريّاً بنّاءً ومغيّراً.

إنّ ثقافة القرآن الفكرية التي يخاطب بها الإنسان هي ذات طابع وهدف علميّ.. فكلّ فكره وثقافته هو للعمل.. حتّى الثقافة العقيديّة العقليّة.. هي أساس ومنطلق للسلوك والعمل.. لهذا فهو يرفض القول دون العمل. جاء ذلك في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ) (الصف/ 2-3).

وفي مورد آخر يربط بين الإيمان النظري والعمل التطبيقي.. ويعتبر الانفصال بينهما خسارة وضياع للإنسان.

قال تعالى: (وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) (سورة العصر).

ثمّ يوجّه الإنسان للعمل، وتطبيق الفكر والثقافة النظرية على السلوك والمواقف، ويدعو إلى تجسيدها عملاً منظوراً وملموساً في الحياة.

نقرأ من هذه البيانات:

(وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ) (التوبة/ 105).

(وَأَنْ لَيْسَ لِلإنْسَانِ إِلا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى) (النجم/ 40-39).

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) (الشمس/ 10-9).

وهكذا فإنّ القرآن يبني ثقافة الفكر والعمل.. وليس المثقّف إلا مَن نقّى وثقّف سلوكه وفكره من الانحراف ومساوئ الأخلاق، وحرص على الاستقامة ومكارم الأخلاق.